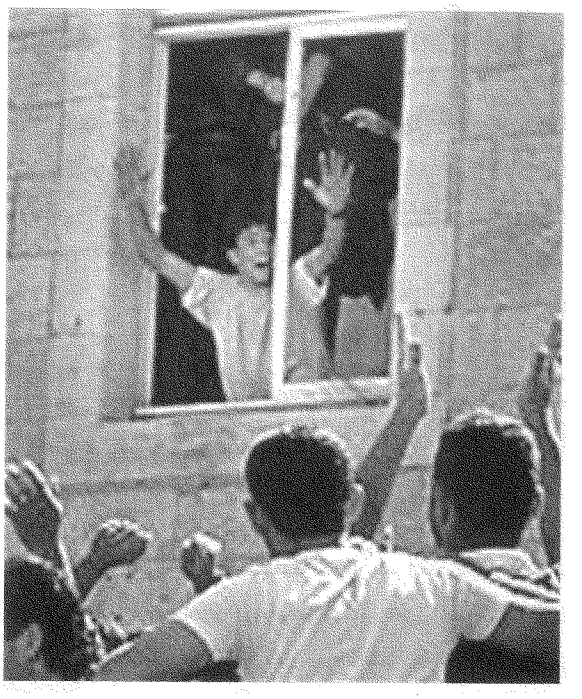

عليها أن «تفتخر» بموت ابنها شهيدًا للوطن، ولاسيّما أنّ زوجها أعْلمها أنّ بكاءها على فقدان ابنها معناه أنّها ليست فخورةً به وقد يؤدّي إلى أن لا تلتقي به في الجنّة! حَبَست المسكينةُ دموعَها وداست على مشاعرها الإنسانيّة احترامًا لابنها الشهيد. ولكنْ تُرى: هل يمكنها أن تواصل حياتها الطبيعيّة وهي لا تملك حقّ التعبير عن شعورها؟

تؤلمني قضيةُ هذه المرأة، وتخيفني فكرةُ الهالة الكبيرة التي نُضطرّ إلى وضعها حول المناضلين حفاظًا على صمودنا؛ فهذا كلّه يَحْرمنا إنسانيّتنا ومشاعرَنا. ثم ما هو الأثر البعيد المدى لمثل هذا الحرمان؟ أليس من الممكن أن يؤدّي إلى تحويلنا أشخاصًا لا يَأْبهون بتعذيبٍ أو قتلِ إنسانٍ آخر بهدف الانتقام؟

كثيرًا ما نشاهد جثةَ شهيد مشوّهةً، ونتعمّد ذكرَ كلّ التفاصيل المتعلّقة بإصابته من أجل إظهار وحشية الاحتلال الإسرائيليّ، غيرَ مكترثين بشعور أهل الشهيد الذين يعيشون ألم جراحه وموته مرةً تلو الأخرى كلّما شاهدوا هذه التقاريرَ الإخباريّة. في أحد التقارير أَمْسك المراسِلُ برأس أحد الجرحى وأزال عنه الضمادات بقسوة لكي يُظهر للمشاهدين مدى الإصابة، غيرَ منتبهٍ إلى أنّه بذلك سبّب ألمًا للجريح وتعامَلَ معه كقطعة أثاثٍ لا مشاعر إنسانيّة لها.

لا أعتقد أنّ هذه هي مشكلةُ الشعب الفلسطينيّ وحده. فلقد أسهمت الشعوبُ العربيّةُ وكلُّ وسائل إعلامها في تشجيع هذه المواقف والإشادة ببطولة الشعب الفلسطينيّ، حتى نسينا أنّ هذا الشعب هو ضحيةُ **أولاً** ومناضل **ثانيًا**. ومن المؤسف حقًا أنّ الإعلام الغربيّ يترجم بطولتنا هذه إرهابًا، فتَظْهر إسرائيلُ وكأنّها هي الضحيّة.

لقد سَلَبَ الاحتلالُ الإسرائيليُّ الشعبَ الفلسطينيَّ أرضَه وحريّتَه وحياةَ الكثيرين من أفراده. فلا يجوز لنا أن نسمح له بأن يسلبه إنسانيّتَه أيضًا.

رام الله

أعـزف أو لا أعـزف؟

سهى برغوتي❖

صديقي سماح،

تحية لك، بل لكم. تحيةً تمرّ في شعاب الجراح التي تَزْخر بها روحي، بل أرواحُنا، في هذه الفترة من عمر الوطن.

أكتب إليك بيد معفّرة بالحزن، متجاوزةً سؤالَ المصير وسؤالَ البقاء إلى سؤال أبسط ولكنه أقسى حتى من اللحظات التي كنتُ أخترق فيها حوارَ الرصاص والقذائف وأتوشّح بحرارة المواجهات والاشتباك اليوميّ متسلّحةً بذاكرة الإرادة التي تَقْتحم السماءَ وَتَنْبذ خيار الرضوخ في انتفاضة عام ١٩٨٧.

سؤالٌ يُحْرق روحي، كما حروقَ جسدي، الناجمةَ عن قنبلة قذفها على صدري جنديٌّ احتلاليٌّ حاقد عام ١٩٩٦ استهدفت القلبَ الذي بقي نابضًا.

سؤال يتعلق بماهية علاقتي بالوطن الآن، الوطن الجغرافيا، التاريخ، الناس. الوطن الحرية، الفرح، الرقصة، الإبداع، الكلمة. الوطن الذي علّمني كيف أغضب، وكيف أحب، كيف أرقص وكيف أتمرد وأناضل، وكيف أدافع عن كرامتنا وحقنا بوردةٍ وبسمةٍ وأغنيةِ حبٍ على أرض محررة.

الوطن الذي تجلّى أمامي بصورة الراحل جمال عبد الناصر، التي أَذْكر وأنا طفلة كم دافعتْ أمي بشراسة من أجل إبقائها معلّقةً على صدر بيتنا العتيق.

الوطن الذي تجلّى في سبعة عشر عامًا ارتبطتُ خلالها بزواج سريّ من شخصٍ مطلوبٍ لسلطات الاحتلال.

الوطن الذي كان يُدفئني عندما أرتعد بردًا وخوفًا، وأنا أنقل البياناتِ السريةَ أو أكتب الشعارات على جدران الشوارع.

الوطن الذي صلّبني في تجربة اعتقال وتعذيب في زنازين كريهة، وزَرَعَ بريقَ التحدي في عينيّ اللتَيْن تنظران إلى وجوه رجال المخابرات الفاشيين.

❖ - مناضلةٌ، وإعلاميّةٌ، ومديرةُ «فرقة الفنون الشعبيّة الفلسطينيّة» التي زارَتْ لبنانَ الربيعَ الماضي، وزوجةُ المناضل الكبير أحمد قطامش الذي تخفّى ١٧ عامًا عن عيون الاحتلال الإسرائيليّ.

الوطن الذي تجسّد في جنازة كل شهيد، وفي تجاعيد حَفَرَتْها السنينُ على وجه أمٍّ تقف خلف قضبان الأسر، وفي محاولات ابنتي الجاهدة لأن تلامس أصابعُها الصغيرةُ أصابعَ والدها خلف شَبَكِ الزيارة المزدوجِ في سجن «النقب» الصحراويّ.

الوطن الذي أعرف تمامًا أنّ الطريق إلى تحرره من الأسر مازالت طويلة جدًا ودامية جدًا.

الوطن الذي بدون تضافر كل الشرفاء في الوطن الأكبر لن يُكتب له الانفكاكُ من أسره.

الوطن الذي تقطعتْ أوصالُه إلى مدن ممزقة، وغرقتْ أشجارُه بدموع الثكلى ودماء الشهداء.

صديقي،

أكتب إليك وأدعوكَ لأن تقلّب معي صفحات روحي الحزينة، متكئةً على ذلك الدفء الذي شعرتُ به ـ بل شَعَرْنا به ـ في نيسان عام ٢٠٠٠ عندما تحقق حلمُ «فرقة الفنون» بحضورنا إلى لبنان.

وهناك بدأ السؤال في لبنان، في كنف أسوار صور التي لا تختلف عن أسوار عكا، وقبل أربعة أشهر من اندلاع الانتفاضة الحالية. سؤال: ما العمل؟ كيف نتعامل مع معضلة الواقع الأليم واللئيم والحلم المشروع؟ كيف نُوضح أنّ العودة لمخيمات اللجوء (هناك) بعيدة وبعيدة جدًا، مع أنّها مشروعة بكل المعاني التاريخيَّة والحقوقيَّة والأخلاقيَّة؟ كيف نفسِّر الواقع دون أن نَضْرب الحلم؟

هذا السؤال تزاوج مع سؤال آخر بدأ منذ فجر ٢٠٠٠/٩/٢٨، وتواصل مع كل جنازة شهيد وبطولة شاب يندفع باتجاه حواجز الموت وكأنها بوّاباتُ الحرية.

إنني أتساءل دومًا لماذا لا أشارك بقوةٍ في فعاليات الانتفاضة الحالية؟ لماذا لم أعد أتوحّد مع الحجر والهتاف؟ أين ذهبتْ تلك الحرارةُ والعنفوانُ والانغماسُ في الهمّ العام؟

فأسلاك الاحتلال مازالت تَفْصل الإنسانَ عن بيئته ومداه، ومازالت النار تَحْصد أبناءَ الشعب، ومازال اللجوء، ومازال التشرد، ومازالت عينا ابنتي «حنين» المتحفِّزتان والخائفتان تدعواني يوميًا للتقدم إلى الأمام.

إذًا لماذا هذا البطء؟ لماذا هذه العقلانية الخارجة عن نسق شخصيتي؟ أهو الخوف من الموت؟ ربما، ولكنّ سيمفونية الموت لا تعني لي شيئًا لأنني أعيش بوقت إضافيّ بعد أن كدتُ أرحل عام ١٩٩٦.

أهي رغبتي في الحياة المرحة المنطلقة المرفّهة؟ ربما، ولكنني طالما أحببتُ الحياةَ والانطلاقَ حتى في أحلك الظروف. ومن طريف النقد الذي وُجِّهَ إليّ سابقًا أنني كنتُ أعتني بمظهري حتى أثناء توجهي إلى المظاهرات أو للتحقيق في الزنازين الاحتلالية.

أهو خوفي من أن أعرِّض ابنتي «حنين» لمزيد من الصدمات، خاصة أنها قضت طفولتَها بين زياراتِ السجون وإصابةِ الأم واعتقالِ الأب ومداهمةِ الاحتلال للبيت أكثرَ من مرة؟ ربما.

أهو التوق الفطريّ إلى الاستقرار بعد ثلاثين عامًا من الاندماج بمتطلبات العمل؟ ربما.

ألأنّ الشروط وأساليب النضال اختلفت، فلم تعد مطلوبةً الرسالةُ السريةُ أو البيانُ أو الكتابةُ على الجدران لتعميم توصيات «القيادة الموحّدة،» كما انتهى دورُ لجان الأحياء واللجان الشعبية والتعليم الشعبيّ والتكافل الأسريّ؟ ربما.

أوقعتُ في فخ المقارنة بين الانتفاضة الكبرى والانتفاضة الحالية؟ وهل هي مقارنة مشروعة من حيث الدوافعُ والأهدافُ والقناعةُ وممارسةُ هذه القناعة على الأرض؟ ففي معرض نقاشي مع إحدى المناضلات القدامى قالت ببساطة وعفوية متناهيتَيْن: «في الانتفاضة الأولى كنا ندرك كيف ولماذا نناضل، ولكن الآن... !!» ربما هذا هو السبب الأبرز.

فالوطن يعني الالتزامَ، يعني القناعةَ التي تشكّل الحافزَ والدفقَ والاندفاعَ، دون التفكير في أية حسابات وأية عقبات وأية تبعات.

أتوق للنضال، وأَخْجل من نظرات «ملاك» و«شهيد» الطفليْن اللذيْن استُشْهدا قبل أيام إثر تفجير الاحتلال منزلَهما في رام الله؛ وأنحني احترامًا لكلّ ساعد يرمي حجرًا ويَحْمل مقلاعًا. ولكنّ عقلي يَرْفض فكرة أن أكون قربانًا لمكاسب سياسية ضحلة.

يقْهرني أنّ الجرحى والثكلى والمناضلين لن تَسْنح لهم فرصةُ المشاركة في قرارِ متى وكيف وإلى أيّ سقفٍ ستُستَثْمر هذه التضحيات.

فسؤال البقاء أو سؤال المصير يجب أن يَخْرج عن إطار الفرد، مهما كان وأيّاً كان.

ولكنْ، يزاحم تداعياتي صوتٌ يخرج من عمق الألم الذي أشعر به اليوم بعد قيام مجموعة فاشيّة من قوات الاحتلال الخاصة بإعدام خمسة شهداء من جهاز الأمن الوطنيّ قرب رام الله.

هذا الصوت يَقْرع بابَ الخزّان ليذكّرني بأنّ الاحتلال أساسًا هو مشروعٌ استعماريّ غربيّ بدأ منذ نابليون الذي دعا إلى إعادة بناء مملكة أورشليم، مرورًا ببريطانيا بلفور. وهو المشروع ذاته الذي أَنْتج حركةَ هرتزل ودولةَ بن غوريون وصولاً إلى سلطة شارون.

إنّه الصراع الوجوديّ، صراعُ النقائض، الذي يحتّم عليّ اختيارَ جدلية الحياة على صمت الموت، والانحيازَ بكل عزم إلى قوة الحق.

أختار أن أَعْزف مع آخرين معزوفةَ عدالتنا ومنطقنا ورؤيتنا، بدلاً من التوقف عند استنكار نشاز «السلام» الحاليّ.

هنا أتوقف. وإلى تفاعل آخر، حيث يغوص حضورُكم فينا، يا من شرّعتم لنا بوّابةَ الآداب كما شرّعتم لنا سابقًا أفئدتَكم وعقولَكم.

وبالرغم من التساؤلات نقول: نعم لتناغم الجزء بالكل، نعم للفرح والأمل، نعم لقطار الزمن. أوَنقول أيضًا إنّ الأيام الأجمل لم تأت بعد ؟

كل التحية.

تساؤلٌ تَجَسَّمَ عبر قنطرة مستوية

د. كميل حنا مخّول❖

تحتّ الخطى بحثًا في الزمن الكتوم الذي حطَّ، فحطَّم، فتحجَّر، فامّحى من الذاكرة. عادت لتنتزع منه تساؤلاً لم يتفجَّر، علّها تعود لذاتها بجواب، وتعود بمَعْلم فمَعْلم فطريق... ووصلتْ!

تقف على عتبة البيت، لتدخل إلى الخارج، أو لتخرج إليه سيّان، عَبْر قنطرةٍ ما زالت متماسكة. وأكوامُ الردم تحيل القنطرةَ عينَ أمٍّ تترقب، تجوب المسالكَ ظمأى لظل أنيس.. وتشيح بنظرها عن ملامح درب لم يعد دربًا حين امّحتْ كلُّ معالم الطريق. فلم يبق غيرُ بضعة «بيوت شوك» تشبثتْ بمزَقِ مناديل الجارات، وبلعبة طفلٍ رأسُها حصوةٌ حوصرتْ بقصاصةٍ من زيّ عتيق. ويلوح من بعيدٍ حبلُ غسيل صُفَّتْ فوقه الأثوابُ خشيةَ الجفاف، تَنْفض عنها شمسَ حصادٍ لافحة، لئلا تزيّف لونَها الناعسَ فتحيله مهينًا وفاضحًا.

وقفتْ، والعتبةُ تحت قدميها هي الحقيقةُ الوحيدة التي صقلتْها الأقدامُ يومًا بعد يوم، وجيلاً في أعقاب جيل. هي قطعة الحقيقة الباقية، تُسْند إليها شظايا الحقيقة ـ شظايا الحقيقة كلها! وكان فزعٌ، وكان جزعٌ، وكان سكون.. ولم يك الربُّ قد خَلَقَ السؤالَ بعد.

ما جرؤتْ أن تحدِّق إلى شيء، بل بعثرتْ نظرةً إلى أشيائها الفزعة. تقاعستْ حيال تزاحُم الملامح التي اقتحمتْها. وإذ أدارت رأسَها ببعض قسوة لتستلّ ناظريْها من هذا الزحام أخذتْ أشياؤها تنداح وتتحرك ويرتطم بعضُها ببعض، كأنما تتراكض هي الأخرى لترحل. وشظايا الوعي التي تناثرتْ اتّسقتْ في بُعدٍ آخر تصاعديّ، تَنْتشر عليه الذكرياتُ، وقطعُ ذكرياتٍ ما أُمهلتْ لتكتمل، وتدلّتْ منه آمالٌ مبتورة وآثارُ طموحات تنزلق إثر دمعة كتومة وإثر زفرة تغلي. وكان سكون.

كأنّما اتكأتْ، لا تنضح فزعًا لثقل ذاك الفزع، ولا تُبدي جزعًا لعمق هذا الجزع. جمعتْ عينيْها كلتيْهما، وغرزتْ نظرتَها في أظفارها. وبحسرة ما زفرتْها رئتان قطّ، تلهفتْ لهفةَ عشرين جيلاً ومجازر!

ليت يا مرنوش[1] قد طالت أظافرنا!

ليت يا مرنوش قد طالت أظافرنا!

أنا ما ادَّخرتُ لهم كلامًا ما استهلكتْه مآسي الناس...

وما طالت أظافرنا!

لهفي على عينٍ تعاتب: «أين كُنتم!»

لهفي على زند توّعد: «كيف هِنْتم!»

ليت يا مرنوش قد طالت أظافرنا، لنقول: كنا في سبات!

فأنا ما عدتُ أفهم! ألسنا نتحدر ممن تعقّبوا الدّيم حين تمنَّعتْ، فابتغوا خراجَها؟ أم أنّا نتحدر ممن أناخوا الوعيَ اذ سقفوا السماءَ لتنبسط، لنصطاد التاريخَ والغَيْمَ والتقدمَ والدِّببةَ والغلبةَ والسلطانَ المسلول والرحمةَ والنصرَ المقدَّم والمؤخَّر، فكدنا نرتطم بالصخر الذي بُنيتْ عليه، والصخر الذي يُمتطى في الحلم الكبير ليحوط أمواهًا تضيق المحيطاتُ عن بلعها، وقد وعدنا بأن يدفقها طوفانًا يهول البغاة مذ اشتبقوا التفاح وهمّوا به.. إلى أن تشقق ثرى المستنقعات وديست القمم؟!

كنا نَرْصد النجوم، ونسترق النظرَ إلى «بنات نعش» حين سرين على درب التبن، وإذ باثنتين تتخلّفان وتختفيان خلف ثنية الهزيع، فتثيران همسَ الأخريات ببعضِ إثم أو ببعض ظنّ. وكانت العيون شبقةً تزدرد الأبعادَ، وكانت الآذانُ مُرهفةً سكرى بلذة هذا الهمس. وانتظرنا، وانتظرنا، وعلا الضجيج، واشرأبّتْ أعناقُنا، وخفَّتْ كثافتُنا، وتسامى صبرُنا، فالهمسُ صار صاعقًا، وعلا ضجيجُ الرجم.. ويا مرنوش، ما ظلوا وما طالت أظافرنا! ما عُدتُ أفهم يا مرنوش كيف تُحزمَ الملامح، بل كيف

❖ ـ باحث في البيولوجيا الجزيئيّة البنيويّة، الجليل الأعلى، فلسطين المحتلّة.

١ ـ أحد أهل الكهف في مسرحية **أهل الكهف** لتوفيق الحكيم (١٩٤٠).